حـوار مع صاحـب الأُذن الذّهبيـة:أ. د. محمد رياض بـن رجـب

اجرى الحوار: أميـرة الخليفـي*- علم النفس العيادي
مركز معالجة الألم، مستشفى الرّابطة، تونس. - كاتبة عامة للجمعية التونسية لتطوير التحليل النفسي.
ترجمة إلى العربية للمؤلّفين.1
المراجعة والدقيق اللغوي: أ. محمّـد الطّاهـر الزّدينـي.
riadhbenrejeb@yahoo.fr

تقديـــم (مجلــة الآخــر)

الأستـاذ ريـاض ريـــاض بـن رجب أخصّائي في علم النفس العيادي ، أستاذ علم النفس العيادي بجامعة تونس، وهو من الباحثين الروّاد الذين اقترحوا قراءة عابرةللثقافات لفهم الأمراض النفسية بتونس. يفتخر بكونه التلميذ التونسي الوحيد للأستاذ الفرنسي سارج ليبوفيسي (Serge Lebovici). وهو أيضا صاحب رائز الذكاء الوحيد المقنّن على البيئة التونسية. أدرج تدريس "علم الأنتروبولوجيا" سنة 1993 ثمّ "علم النفس اللّساني" سنة 1994 ضمن برنامج الأستاذية (الباكالوريوس) في علم النفس بجامعة تونس. يُدرّس مادة "علم النفس المَرَضِي" منذ 1990بمستشفى الرّازي للأمراض العقلية، وهو ما يمكّن الطلبة من حضور تقديمٍ لحالات سريرية ومناقشتها.

وفي مجال "شهادة الماجستير المهني في علم النفس السريري والمرضي"، أدرج سنة 2005 تدريس مادة "الفترات المُحيطة بالولادة" ومادة "علم نفس الكوارث". كما أدرج "اختبارا تطبيقيا" يضع الطلبة في وضعية مقابلة واستشارة عيادية حقيقية.

بعث سنة 2008 شهادة "الإجازة التطبيقية في علم النفس الحركي" (Psychomotricité) بكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية (جامعة تونس).

كوّن الأستاذ ريـــاض بن رجب كذلك أجيالا عديدة في اختصاص تقويم النّطق (orthophonie) والتربية المختصّة (Education spécialisée) بالمؤسسات الراجعة لها بالنظر.

ولا يقتصر النشاط العلمي للأستاذ ريـــاض بن رجب على المستوى الجامعي والأكاديمي في تونس، بل يتجاوزه إلى التدريس والبحث بالجامعات الأجنبية فضلا على التكوين الذي تلقاه في مجال التّحليل النفسي على أيدي كبار المختصّين في المجال وهوما خوّل له - عن استحقاق وجدارة - عضوية جمعيّة باريس للتحليل النفسي (Société Psychanalytique de Paris) والجمعية العالمية للتحليل النفسي (International Psychoanalytical Association) وهو الممثّل الأوّل والوحيد لهاتين الجمعيّتين في تونس بصفة تلك العضوية.

قدّم لنا الأستاذ رياض ريـــاض بن رجب - عبر هذا الحوار - معلومات خاصّة حول مسيرته العلميّة والشخصيّة، ويسلّم لنا "البعض من الإعترافات" كما يحلو له أن يقول[2].

سنركّز في هذا الحوار على التواصل بين الثقافات، والتحليل النفسي، ومجال ما حول الولادة، وهي المحاور الثلاثة التي يُفضّلها، ويتجلّى ذلك بوضوح عبر مؤلفاته الأخيرة وتحديدا كتاب: "*الطقوس، من الانتروبولوجي إلى العيادي*" (2015)، وكتاب :"*ذاكرات الجسد*" (2016) وغيرهما[3].

مجلـــة الآخـــر:

أستاذ رياض ريـــاض بـن رجـــب ، أنت أخصائي نفساني، ومحلّل نفساني، أستاذ بكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية (جامعة تونس). وفي المجال الجمعيّاتي، أنت رئيس جمعية للقاصرين ذهنيا بمدينة قليبية *UTAIM* »[4]« وأنت مؤسس الجمعية التونسية لتطوير التحليل النفسي (*ATDP*)[5]وهي جمعيّة معترف بها من طرف الجمعية العالمية للتحليل النفسي(*IPA*).[6]

كما أنّك عضو مراسل خارجي تمثّل تونس لدى العديد من المجلاّت والجمعيات الأجنبية منها على سبيل المثال مجلـــة الآخـــــر(*L'autre*)والجمعية العالمية "تفاعلات التحليل النفسي"، إضافةإلى أنّك مؤلف لعديد الكتب التي تربط علم النفس المَرَضِي للطفل والمراهق بالعوامل الثقافية. هل يمكن لنا أن نقدّمك بطريقة أخرى؟

رياض ريـــاض بـن رجـــب :

أن يقع تقديمي بطريقة أخرى !؟ أنا شخص يحبّ العمل في اتجاهات مختلفة، وفي مجالات مختلفة وفي نفس الوقت، كلّ هذا مع التنظيم، أنا لا أسمح لنفسي بهدر الوقت.

مجلـــة الآخـــر:

لك مسيرة متنوعة وثريّة: زاولت الدراسة الإبتدائية ثم الثانوية بمدينة قليبية (حصلتَ على شهادة ختم الدروس الثانوية، "الباكالوريا"، سنة 1978)، ثمّ الأستاذية (الباكالوريوس) في علم النفس من جامعة تونس سنة 1982، ثمّ واصلتَ الدراسات العليا بباريس وتحصّلت تباعا على : شهادة الدراسات المعمّقة في علم النفس المَرَضِي (جامعة الصربون، باريس 5، 1984)، ثم شهادة الدراسات المعمّقة في علم النفس اللّساني (نفس الجامعة، 1985)، ثمّ شهادة الدراسات المعمّقة في علم الإنسان "الإتنولوجيا" (مدرسة الدراسات العليا في العلوم الإجتماعية، باريس، 1985)، ثم شهادة الدكتوراه (نظام جديد) في علم النّفس المَرَضِي وعلم النفس اللّساني (جامعة الصربون، باريس 5، 1987)، ثمّ شهادة دكتوراه الدّولة في علم النفس العيادي (جامعة تونس، 1997). ما أروع هذه المسيرة!إنّها مسيرةٌ دون أخطاء. هل هذا مجرّد حظّ أوهو نتيجة المثابرة ؟ هل يعكس هذا قدرة على التوقّع والبرمجة أو هي عزيمة كبيرة على تحقيق الأحلام ؟

رياض بـن رجـــب :

لم أكن يوما أفكر في كلّ ذلك ! لا أتذكّر أني حلمت بكلّ هذا لمّا كنت صغيرا. لكن قد يُخفي هذا النّجاح دوافعَ أخرى مِن بينها أخذ الثأر من الزّمن مثلا.

مجلـــة الآخـــر:

ما كانت مشاريعك وطموحاتك منذ صغرك ؟

رياض بـن رجـــب :

لمّا كنت في المعهد الثانوي بمدينة قليبية، في السنوات السّبعين، كنتُ تحت وقع أربع شخصيّات –ثلاث منها عائليّة– وتأثيرها، أوّلها خالي الأستاذ الدكتور المنجي بن حميدة، الذي ذاع صيته في مجال طبّ الأعصاب، وهو مؤسس معهد الأعصاب بتونس. وكان أيضا عميدا لكلية الطب بتونس ثم وزيرا للصّحة وأحد أطباء الرئيس الحبيب بورقيبة آنذاك.وقد أسّس كذلك قسم تقويم النّطق بكلية الطب. كان ذا صيتٍ عالمي في مجال بحوثه واكتشافاته ومنشوراته حول الأمراض الإنحلالية الوراثية بصفة عامة وحول مرض

التقلّص العضلي في صيغته وخصوصياته الجينيّة التونسية بصفة خاصّة.كان في نفس الوقت رئيسا لبلدية مدينة قليبية لمدّة خمس عشرة سنة.وأسّس بها مركّب التّربية المختصّة للقاصرين (ذهنيا وعضويا وللصمّ).أعتقد أنّه كان بالنسبة إليّ المِثال والمرجع العِلمي الأوّل، لأنّ مرجعي الرّوحي، كان والدي، وهي الشّخصية الثّانية التّي وضعت بصماتها عليّ. وعندما أقول "الشّخصية الثانية" لا يعني ذلك ترتيبا تفاضليّا. يبدو لي أنّ هاتين الشّخصيتين تمثّلان بالنسبة إليّ الرّكيزتين الأساسيتين لشخصيّتي.كانتكلّ الأسرة تُتابع مسيرة هذا الخال بداية من سنة 1970: عودته من فرنسا واستقراره بتونس، وكنّا نكتشف في ذات الوقت أهمّيته وإشعاعه العلمي في تونس وبالخارج.كانت له هالةٌ خاصّة،وكان قويّ الشّخصية صعب المزاج بل وأحيانا حادّا،لكنّه كوّن أجيالا على مبدإ احترام الدقّة في مجال البحث العلمي التّجريبي والإحصائي وكذلك دراسة الحالات الفردية. ساهم لاحقا في تكويني في مجال مناهج البحث وفي مجال التّحرير. كان ينصحني ويوجّهني عندما كنت طالبا في علم النّفس بتونس. وعندما نجحتُ في امتحان الباكالوريا (ختم الدروس الثانوية)، عبّرتُ له عن رغبتي في التكوّن في مجال التّحليل النفسي، فنصحني بالتسجيل في قسم علم النّفس، ثم القيام لاحقا بتكوين في التّحليل النفسي. وبذلك بدأت المغامرة. وأنا شخصٌ أؤمن بالقَدَر– وكنتِ سألتِني عن الحظّ – لأنّي التقيتُ بالتّحليل النفسي وتعرّفتُ إليه فجأة لمّا كنتُ بالسنة الرّابعة أو بداية السنة الخامسة ثانوي ! التقيتُ أستاذ الفرنسية محمد التّابعي الذي كان مُغرمًا باقتناء الكتب بكلّ أنواعها ومطالعتها. فكان عبارةً عن علامة مُضيئة في طريقي. كان هذا الأستاذ المدرّس للغة الفرنسية بالمعاهد الثانوية صاحب ثقافة موسوعية كبيرة. كانت بحوزته كُتب في مختلف المجالات: الفلسفة والتصوّف والديانات الهنديّة، والتحليل النفسي، ومنها كُتب فلهلم رايش (Wilhelm Reich). وكنتُ أنهل من كلّ ذلك.

مجلـــة الآخـــر:

إذا، كانت حساسيتك للعوامل الثقافية ذات جذور بعيدة ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

نعم. هل تصدّقين ؟!تأثُّري بوالدي – الذّي كان الرّكيزة الموازية التي تركت بصماتها في شخصيّتي من حيث تكوينُه الدّيني والرّوحي وهدوؤُه وصفاءُ فكره وقدرتُه على الإنصات وطبعُه المتواضع – لم يمنعني من الإطلاع على الدّيانات الهنديّة. كان والدي شيخًا زيتونيّا لا يحذق إلاّ اللغة العربية. تخرّج من جامع الزيتونة المعمور سنة 1951 متخصّصا في الفقه وفنّ القراءات. نجح في اِمتحانات الإنتداب للتدريس بجامع الزيتونة بنفس السّنة. ثمّ وقع تعيينه للتدريس بالفرع الزيتوني في مدينة باجة مدّة سبع سنوات أين ولدتُ ومكثتُ ثلاث سنوات، ثمّ وقعت نقلة الوالد للتّدريس بالمعهد الثانوي بمدينة منزل بورقيبة لمدّة ثلاث سنوات. كلّ هذا جعلني أكون مُواجها لمختلف أوجه الاختلاف وللآخر. هل يُمكن أن يخطر ببالكِ أنّ هذا الشّيخ الزّيتوني سجّلني مع أختي بروضة أطفال ترجع بالنظر إلى "الأخوات الرّاهبات"! ثم نحن عشنا في مدينة قليبية الواقعة بشبه جزيرة تقع بالشمال الشّرقي للجمهورية التونسية، وهي منفتحة ثقافيا، بحكم موقعها الجغرافي، على البحر المتوسط بصفة عامّة، وعلى إيطاليا بصفة مباشرة. فكانت قليبية مدينةً تتميّز باختلاطها وتمازجها العِرقي والثّقافي بين إيطاليين وفرنسيين وسُويديين[7]، ومُسلمين ويهود ومسيحيين ولائكيّين، الخ. كلّ ذلك كوّن مجموعة من القوالب الهامة بالنسبة إليّ: منها الثقافي، والعلمي والرّوحي.

ومنذُ تعيينه في خطّة إمامٍ خطيبٍ بجامع سيدي بوضاوي في قليبية سنة 1971، سارع والدي إلى تشييد الصّومعة التي يفتقر إليها هذا الجامعالعريق والتي يجب أن تكون لائقة به. ونجح في كسب رهانه رغم العديد مِن العقبات التي اعترضته هو والذين معه مِن المقتنعين بفكرة هذا المشروع من أبناء الحيّ. فكانت صومعة فريدة في شكلها وفي رونقها وكذلك في رمزيّتها، باعتبار أنّها صُمّمت من قبل مهندس إيطالي وبصفة مجانية تطوّعا منه لفائدة هذا المشروع. وهذا مثالٌ إضافي على نجاح حوار الثقافات. ثمّ إنّ الحوار مع والدي كان دائما حوارا بين الوالد وابنِه وفي ذات الوقت حوارا بين الدّين والتحليل النفسي. وهو في كلّ الحالات حوارٌ يعكس انفتاحا

فكريا كبيرا لدى الوالد. ثمّ أصبحتُ أقترحُ عليه مواضيع وعناوينَ لمؤلفاته.[8] وقدوضعتُ تقديمًا لكتابه "الحديث عن الزّمان من السُنّة والقرآن" وكتبتُ أيضا تقديمًا لكتابه "خُطب منبرية من القرآن والسنّة النبويّة" (بصدد النّشر).

ومع بعض المسافة الزّمنية وخاصة بعد وفاتهما، يبدو لي أن هذين الشّخصين (الخال والأب) يمثلان بالنسبة إليّ الرّكيزتين الأساسيتين لشخصيتي، وهُما يذكّرانني بنموذجين في مجال التّحليل النفسي: أوّلهما فرويد (Freud) وتلميذه يونغ (Jung)، وثانيهماوأفضلهما طبيب الأعصاب فرويد ورجل الدّين بفستير (O. Pfister). كلّ من الخال والأب علّمني الإنصات ومبادئ الحوار واحترام الغير، وعلّمني كذلك حبّ البحث والاكتشاف والإبداع. أنا أنتمي وبكلّ تواضع إلى عائلة مِن البُناة والمؤسّسين وباثّي المعرفة.

مجلـــة الآخـــر:

هل هما الشّخصان الرّئيسيّان اللّذان وضعَا بصماتهما عليك ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

هناك شخص آخر ترك بصماته عليّ وهو جدّي للأب. لمّا كنتُ في مرحلة التعليم الثانوي، كان والدي يملك جهاز تسجيل صوتي يشتغل بالبكرات. كنتُ أبادر دوما إلى زيارة جدّي والحديث إليه مصحوبا بذلك الجهاز، وكان ينقل إليّ الكثير. كنتُ أسأله وكان يُجيبني.... ويبدو لي أنّ حساسيتي للعوامل الثقافيةنابعة أيضا من هنا. فكان يروي لي تاريخ العائلة، والعديد مِن الأحداث من ذلك كيفية انتدابه بجيش المحتلّ الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى، سنة 1920،ثمّ الذّهاب إلى فرنسا في فيفري 1921،ثمّ إلى ألمانيا حيث مكث لمدّة سنتين وأربعة أشهر ليكون ممّن حلّوا مكان الجنود الذين رجعوا مِن الحرب. ومن ذلك حجّه سنة 1928 عبر البحر وانتقالهمع الحُجّاج إلى مكّة والمدينة على الجِمال. ثمّ كان يروي لي كذلك شهاداته حول الحرب العالمية الثانية، وما عاشه من أحداث في كلّ مراحل عُمره. وكان يحدّثني أيضا عن العادات والتّقاليد في تلك الحقبة الهامة من الزّمن. كان بيننا تفاهمٌ وكنتُ أتجرّأُ على طرح أسئلة بعضها يبدو بعضها مُحرجًا له، لكنه لا يتردد عن الإجابة، ومن ثمّ ازداد حرصي على تسجيل تلك الحوارات. كان سنّي آنذاك حوالي 17 سنة وكان سنّه 76 سنة. وقمتُ بتسجيل كل ذلك في العديد من المناسبات، وقام كذلك والدي بمواصلة تسجيل محاوراته مع والده لمّا كنتُأنا أدرس بالجامعة بتونس لاحقا.

مجلـــة الآخـــر:

من أين تنبع هذه الرّغبة في ترك أثر ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

لا أدري. يبدو أنّه كان عليّ ترك أثر، فعلاً! كنت أكتشفُ أنّ ما يرويه لي جدّي ذو أهميّة. إذ كان يعدِّدُلي كذلك الكثيرمن الشّبكات العائلية أو ما يُسمّى شجرة النّسب، والتّاريخ بصفة عامة. لم يكن جدّي صاحب شهاداتعلمية لكنه يملك ثقافة كبيرة. كان شاهدا حيّا على عصره. كأنّما قام بتصوير كلّ أحداث حياته عبر عَينيه وأُذنيه وكامل حواسّه. وكان عليّ أن أقوم بدوري بتسجيل ما صوّره صوتًا فقط.

مجلـــة الآخـــر:

هل أنّ كلّ التّراث العائلي والثقافي والتاريخي محمول في صوته ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

فعلاً! لقد ترك فيّ بصمات خالدة. كنتُ أسأله عن الحفلات والمآتم وعن التّقاليد بصفة عامة. فكان يعطيني معلومات عنها وعن غيرها،ومن ذلك العادات المتعلّقة بالإعتقاد في الأولياء الصالحين. وممّاسبق استنبطتُ موضوع رسالة الماجستير في "علم الإنسان" (Ethnologie–anthropologie): "الظّاهرة المُرابطيّة والعلاج النفسي بالوطن القبلي من تونس"[9]. وأعطاني بذلك انفتاحًاونافذة على هذه العلوم الإنسانية. إنّه تسجيل وحيدٌ واستثنائيّ عرفتُ قيمته قُبيل وفاة والدي (سنة 2012)، فأسرعتُ لإنقاذه بـ "رقمنته" وتحميلهفي جهاز الإعلامية الخاصّ بي.يبدو لي أنّه على نقيض الصّور الشمسية التّي تترك أثرا محدّدا بصريا فقط، فالتّسجيل الصّوتي يبقى حيّا بنبراته وبموسيقيّته وبمحتوى خِطابه. وهو تسجيلٌ حيٌّ فعلا لأنّك تستمع من جديد وفي كلّ مرّة إلى روحه وإلى حضوره وإلى ردود أفعاله، ويعود بك هذا التسجيل إلى تلك

الفترات التاريخية من حياتك أنت زمن التّسجيل. إنّ في التّسجيل الصوتي حياة وديناميكية وحركة مستمرّة لا نجدها في الصّورة الجامدة المتوقّفة في الزّمن باعتبارها لقطة منفردة.

مجلـــة الآخـــر:

وهكذا تمكّنت من حفظ الذاكرة !؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

أجل. وفي خصوص الصّوت، هناك أيضا صوتُ والدي. أتذكّر جيدا والدي وهو بصدد قراءة القرآن الكريم وترتيله. وقام أيضا بتسجيلٍ صوتيّ لتلاوته للقرآن. ويُمكن أن يكون كلّ هذا دافعًا على ولعي بالموسيقى وبثّ الرّوح الموسيقية في أحفاد الشيخ. أكتشفُ– وأنا أتحدّث إليك الآن – أنّي بصدد الكشف عن جوانب خاصّة وخفيّة مِن حياتي الشخصية، وأنّي أتّبع في ذلك أسلوب الكتاب الرائع للمحلّل النفسي تيودور رايك (Theodor Reik) وعنوانه: "جزءٌ مِن اعتراف كبير"[10].

مجلـــة الآخـــر:

إذن نحن نتحدث عن صوت، وعن مادة صوتية مسجّلة، وعن نبرة، وعن استمراريةٍ عبر نقل المعرفة وانتقالها من جيل إلى آخر. هذا يجعلني أفهم القيمة التي تُعطيها في دروسك وعبر منشوراتك لموضوع "الخُرافة والقصّة" وقيمته التّربوية والعلاجية. وهذا يجعلني أربط كذلك مع دروسك في مجال علم النّفس اللّساني، وتحديدا قيمة اللّسان والكلام واللغة، وعن حساسيّتك المُرهفة تُجاه كل تلك المجالات ذات الدّلالة. هل يمكن لنا أن نجد معنى حيثُ لا وجود لمعنى ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

يمكن أن نجد المعنى أيضا في الصّمت ! أتذكّر أنّي قرأتُ لمّا كنت في السّنة الخامسة من التعليم الثانوي (نظام قديم)، أي قبل ختم الدروس الثانوية بسنتين، كتابًا لفلهلم رايشعنوانه "تحليل الطّباع"[11]. مكّنني هذا الكتاب، وهو في فنّيات التّحليل النفسي، من اكتشاف العديد من المعلومات حول الفروق بين المِزاج والطّبع والشخصيّة، وكذلك أنواع المقاومة العفوية للتحليل النفسي عند البعض. كان رايش ينتقد فرويد مقترحا طريقة عمل مختلفة. وكان يُؤمن بأنّ الخطاب اللّغوي لا يكفي لوحده للعلاج. بل كان يقول أنّ هناك لغة تتجاوز لغة الكلام، ألا وهي لغة الجسد. فالجسدُ لغة لوحده وجب تشفير رموزه وتحليلها. ووراء صمت الشّخص تعبير جسدي ولغةٌ ذَوَا معاني عديدة. وهذا ما أكّدته العديد مِن العلوم لاحقا بما فيها علم النفس اللّساني وطبّ الرضيع وغيرهما من العلوم.

كنتُ أيضا مُغرما بدراسة الأمراض النفسية والعقلية والعصبية وفهمها، وهذا قاسم مُشترك مع اهتمامات خالي طبيب الأعصاب. ولعلّ هذا ما دفعني إلى طلب الإلتحاقلاحقا شعبة "علم النفس". وكأنّني كنت أريد القيام بمواجهةٍ بين "علم النفس المَرَضي العام"و"علم النفس المَرَضي العلمي".

مجلـــة الآخـــر:

كل هذا لتتحصّل على إجابات عن أسئلتك العديدة ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

نعم، عديد من الأسئلة المترابطة باستمرار.

مجلـــة الآخـــر:

تطرّقت في كتابك الأخير "ذاكرات الجسد" (*Mémoires du corps*)إلى موضوع اللّغة بما فيها لغة الجسد: ماذا يقول الجسد ؟ كيف يتكلّم ؟ وكيف يعبّر عن أوجاعه ؟ لكن أيضا تطرّقت أيضا إلى لغة الرّسم والتصوير، وإلى معاني الإجابات انطلاقامن الاختبارات الإسقاطية. وخصّصتَ فصلاً عنوانه "الجسد والذاكرة الجنينيّة: حول حالةِ طفل مصاب باضطراب في عملية الحِساب". وقمتَ بتفسيرٍ فَرِيد من نوعه حول ما يصعب التعبير عنهبالكلام وحول قدرتنا على استقراء خفايا الأمور وفهمها، ثمّ كشفها وتقديمها مع البُرهان السّريري. ماذا يمكن لك أن تضيف إلينا في هذا الصّدد ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

يحتوي هذا الكتاب على نصوص كتبتُها على مراحل ومنذ زمان بعيد. يلخّص هذا الكتاب مسيرة علميّة. هو كتاب في مجال التحليل النفسي للطفل، وهو يقدم تأليفًا وتوثيقًا لعملي الميداني العيادي منذ 1987 عندما كنتُ مرافقا للأستاذ الدكتور المرحوم محمّد البشير حليّم، مؤسّس أوّل قسم للطّب النفسي للأطفال بالجمهورية التونسية[12]. وهيتجربةٌسريريّة

طويلة تعلّمتُمن خلالها الكثيرَ طبعًا مع فتراتِ تردّد وحيرةٍ وفترات تعلّم. فنحن نتعلّم، ونتعثّر، ونكتشف، ونُخطئُ، ثمّ نصلح أخطاءنا، وهكذا دواليك.

مجلـــة الآخـــر:

ومع ذلك يبدو لنا – لمّا نتصفّح الكتاب ونقرأه– وكأنَّ ما تكتبه حقائق جليّة لا مجال للشكّ فيها !

ريـــاض بـــن رجـــب :

جليّة !؟ هل تعلمين أنّ هذا النصّ بالذات[13] يسرد مقابلة إنسانية عياديّة تمتّسنة 1990 وهي مِن المقابلات التي لا يمكن أن أنساها. لمّا كنت أتدرّبُ في مركز الطبّ النفسي للأطفال بباريس، أتذكر حالات سريرية لم أنسَهَا. وكلّ هذا كوّنني اكلينيكيّا. وليس مِن باب الصّدفة أن أكون شغوفا بفترة ما حول الولادة. فإنّ الإقتراب مِن الأستاذ سارج لوبوفيسي (Serge Lebovici) يعني الغوص في عالم علم النفس المَرَضِي للطفل وعلم النفس المَرَضِي للجنين. فالسّنة التي سجّلت فيها تحت إشرافه لنيل شهادة الدراسات المعمقة في علم النفس المَرَضِي وافقتْ سنة نشره لكتابه "الرّضيع، الأم والمحلّل النفسي"[14] فكنّا داخل هذا العالم. وبهذا كان يفتحأمامي نوافذ جديدة ومختلفةموازيةلموضوع أطروحتي للدكتوراه الذي عنوانه: "الاضطرابات النفسية اللّسانية لدى أطفال المهاجرين التونسيين". فكنتُبهذا أهتمّ بعديد المجالات والاختصاصات في نفس الوقت.

ويجب أن تعلمي أنّني قبل الشّروع في دراستي بباريس، سافرتُ خصّيصا لمقابلة الأستاذ ليبوفيسي والأستاذ روجي ميزاس (Roger Misès)، وهما مقابلتان ...

مجلـــة الآخـــر:

أساسيتان !

ريـــاض بـــن رجـــب :

بالضّبط. كنت قبل ذلك أشاهد هذين الرّجلين على شاشة التلفزة بمناسبة برامج ونقاشات حول الأمراض النفسية للطفل وخاصة منها التوحّد والإعاقة،وأنا في آخر سنة مِن التعليم الثانوي. ثمّ لمّا انتقلتُ إلى الجامعة، صرتُ منبهرا بالأستاذ المرحوم محمد غربال. كان يدرّسنا التّحليل النفسي. خصّصتُ له فصلا في كتاب "المرجع"(La référence)[15]. فهو الذي حدّثنا عن مقاربة ميلاني كلاين (Mélanie Klein)، وعن ميزاس (Misès) وعن ليبوفيسي (Lebovici)، وعن جان بيرجوري (Jean Bergeret) صاحب أوّل دليل في علم النفس المَرَضِي التحليلي.

وبالتالي، فالعُلماء الذين كنتُ أراهم على شاشة التلفاز في برنامج "ملفّات الشّاشة"[16]، سافرتُ لمقابلتهم بصفة مباشرة. وتقابلتُ أيضا مع الأستاذ روجي برّون (Roger Perron)الذي رخّص لي الحضور في درسه المنهجي. فكما ترين، كنت لا أضيّع أيّ مناسبة لمقابلة أشخاص بهدف الاكتشاف والتعلّم.

واِكتشفتُ زيادة على ذلك مجال علم النفس اللّساني، وهو مجال كنتُ أجهله تمامًا. اكتشفتُ هذا العلم بفضل دروس الأستاذ المُبدع فريديريك فرانسوا (Frédéric François) وهو أيضا أستاذ بجامعة باريس 5. كنتُ فعلا محظوظا بالتقائي في حياتي بمجموعة من الشّخصيات الهامة في عائلتي، ثم هذا الرّباعي أثناء دراستي: ليبوفيسي (Lebovici)، ميزاس (Misès)، برّون (Perron) وفرانسوا (François).

مجلـــة الآخـــر:

وأنا أستمع إليك، كنتُ أتساءل: كيف كان بإمكانك أن ترتمي في عديد المشاريع وفي رهانات عديدة في نفس الوقت ؟ فهي عبارة عن عقود فريدة من نوعها. فأنت لا تتخلّى عن شيء: كنتَ في الخارج بعيدا عن بلدك وأهلك، وكنت شابّا، وكنتَ تتحدّث معقِمم علميّة. من أين لك كلّ هذه الثقة بالنفس ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

التحدّي. كنت مدفوعًا بعطش المعرفة والفضول العلمي.قلتُ لك في البداية إنّي أؤمن بقيمة الوقت وبالتالي فليس لي وقت لإضاعته. وأعتقد أنّ جهازي النفسي (الشعور واللاشعور) لم يترك شيئا للصّدفة. فعلى سبيل المثال، إذا قمتُ بتسجيل حوار مع جدّي، فهذا يعني أن هناك فوائد مِن ذلك وجب حفظها منه وسيقع جني ثمارها في وقت لاحق.

وكنتُ أريد فهم بعض الألغاز والغرابة الموجودة عبر بعض الأمراض (أوالمصائب) التي تُصيب بعض العائلات وفهمها. وهذا يُبرّرُ شغفي اللاّحق بمجال "علم النفس المَرَضِي العائلي" و"علم النفس المَرَضِي عبر الأجيال". فلم يكن مِن باب الصّدفة أن ألتقي بالأستاذ ليبوفيسي (Lebovici)الذي يتحدّث عن كلّ هذا. كنتُ ألاحظُ وجود ربط واستمرارية وعبور عبر الأجيال لخصائص مزاجية وطبعيّة (ليست بالضرورة مَرَضِيّة) وشخصية، وكذلك لعلامات مَرَضِية، ولأمراض نفسية جسدية، وهي مظاهر ما يُسمى بالتّكرار القصري اللاشعوري.

وقبل ختم الثانوية العامة، كنت مغرما أيضا بمجالات التصوّفوأشكاله وخاصّة منها الآسيوي (اليُوغا والزّان وغيرهما). وكنت أقرأ أيضا للمحلّل النفسي يونغ(Jung)الذي كانت مُيولات صوفية في مقارباتهالعلمية.وفي الأخير، قرأتُلفرويد (Freud)سنة الباكالوريا. كنّا مطالبين تلك السّنة بقراءة كتبِ مفكّرين أمثال أبي حيّان التوحيدي ودراستها. وكنت أقرأ كلّ ذلك بالتوازي مع قراءتي لفرويد.

مجلـــة الآخـــر:

حساسيّتك لموضوع "القَدَر" دفعتكَ إلى أن تخصّص له ندوة علمية أُنجزت سنة 2002 وإلى نشر كتابين بالفرنسية حول نفس الموضوع. هل هذا صحيح ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

إنّ مواضيع القَدَر (Le destin)والدَّيْن(La dette)والطّقوس (Les rituels)تثير انتباهي مِن زمان بعيد. إنّ اهتمامي بهذه الظواهرثمّ دراسة التّقاطعات المتواجدة فيما بينها من الزّاوية الدينية والثقافية والسريرية وكذلك من زاوية علم النفس المَرَضِي العابر للأجيال، أكّد لي كلّ ذلك صوابَ هذا الاهتمام.

فعلى سبيل المثال، يجب معرفة الصّدفة أو القدر الذي جعلني أقرر أن أتكوّن في مجال التّحليل النفسي.قلتُ لك إني قرأتُ واطلعت على عديد المؤلفات والمنشورات حول هذا المجال منذ الثانوية العامة. لكن بعد حصولي على شهادة ختم الدروس الثانوية (الباكالوريا)، وجدتُ نفسي مُوَجَّهًا رغم أنفي إلى شعبة الإنجليزية. كان ذلك قرارًا اتّخذه جهاز "ذكيّ" بوزارة التعليم العالي، وهو عبارة عن لجنة مكلّفة بتوزيع الطلبة الجدد على مختلف الشّعب الجامعية حسب معدلاتهموالأعداد المتحصّل عليها في موادّ معيّنة. وكان قرار الوزارة صدمة بالنسبة إليّ. وقد رويتُ تفاصيل هذه الأحداث في كتابِي "الأخلاق في علم النفس" (2003، بالفرنسية) وتحديدا في نصّ عنوانه "أيّ أخلاق لأيّ علم نفس ؟".

مجلـــة الآخـــر:

وكأنّك تعبّر عن الأمر بهذا الشكل: "رَفَضَ هذه اللجنة أن تُمكّنيممّا كنت أتمنّى..."

ريـــاض بـــن رجـــب :

نعم. لأنّهالجنةتبتّ في الأمور وتقرّر المصائر، تمامًا كالقضاء والقَدَر. لم يكن هناك احترامٌ لرأي التلميذ ورغبتهوثقافته، أو ليس هو احترامًا بالقدر الكافي. وشخصيّا، لم أحصل على أعداد مَرْضِيّة في الموادالتي تُمكّنني من التسجيل بشعبة علم النفس،بل تحصّلت على عدد عال في مادة الإنجليزية، فتمّ توجيهي عنوة ومباشرة إلى هذه الشعبة!

مجلـــة الآخـــر:

ولكنّك عزمتَ على أن لا تترك أحدا يقرّر مصيرك عوضا عنك !

ريـــاض بـــن رجـــب :

عملتُ كلّ ما بوسعي حتّى أغيّر الاختصاص أو المسلك الجامعي. لكن كان ذلك التوجيه بمثابة الصّدمة الكبرى. وكان عليّ أن أقبل بالأمرالواقع وأن أدرس اللغة الإنجليزية...

مجلـــة الآخـــر:

ألم تقل لنفسك حينذاك إنّأمامكمستقبلا مهنيّا جديدًا غير مجال علم النفس ؟ هل كانت الأمور بالنسبة إليك بهذه الدرجة من الوضوح والبداهة ؟!

ريـــاض بـــن رجـــب :

كنتُ فعلا في حالة إحباط عندما لاحظتُ أنّ القدر اختار مصيرا آخر وقرّره لي، ومكثتُ وقتا حتّى أتجاوز "مرحلة أسف و حِداد"على مجال علم النفس. قمتُ بمجهود حتى أتعلّق

باللغة الإنجليزية، ووجدتُ نفسي على السكّة، ولاحظتُ أنّني كنت متمكّنامن هذه اللغة وأنّني قادر على النّجاح. وفي الوقت الذي نسيتُ فيه – أو أوشكتُ – مسيرة علم النفس وتشكّلت أمامي مهنة الأخصائي في اللغة الإنجليزية، في ذلك الوقت الذّي نسيت فيه كلّ شيء، أرى ذات يوم ومِن باب الصّدفة ورقة معلّقة على باب من أبواب أروقة الكلية ! لم أصدّق ما قرأت عليها...

مجلـــة الآخـــر:

ماذا قرأت ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

قرأتُ إعلانا مكتوبا بخطّ اليد يحتوي على مذكّرة موجّهة إلى الطّلبة مضمونها: "الطلبة الذين يرغبون في تحويل مسارهم الدراسي إلى إحدى الشّعب التالية : علم النّفس أوعلم الاجتماع أوالفلسفة، بإمكانهم تقديم مطلب كتابي في الغرض إلى رئيس القسم، الأستاذ الدكتور عبد الوهاب بوحديبة"، الذي كان يُدير آنذاك قِسْمًا يُوحّد بين هذه المسالك. والدكتور بوحديبة شخصية أخرى ستترك أيضا بصمتها على مسيرتي لاحقا.

فِعلاً لم أصدّق ما رأيت ! كنت أقرأُ وأعيدُ قراءة هذا الإعلان ! نعم، يكفي تقديم مطلب إلى رئيس القسم لأستردّ تقرير مصيري. وقد قبِل الدكتور بوحديبة كلّ مطالب تحويل المسار الدّراسي لأنّه كان يرغب في دعم العلوم الإنسانية التي ستستقلّ عن بعضها البعض فيما بعد[17].

مجلـــة الآخـــر:

هذا يعني أنّ هناك أصنافٌ من الحِداد من المفروض أن لا تحدث، وإن صادف وحدثتْ فلا يُمكن أن تستمرّ !

ريـــاض بـــن رجـــب :

هذا صحيح ! وهذا يعني أنّه في الوقت الذي كنتُ أعتقد أنّي نسيت كلّ شيء أو تقريبا، أجد نفسي، بعد شهر من التأخير، داخل قسم السّنة الأولى من أستاذية علم النّفس، مكوّن من حوالي عشرين طالبا، وهو القسم الوحيد للسنة الأولى في ذلك الوقت. وكنّا ندرس على أيدي أفضل المدرّسين في مجال علم النفس المَرَضي والطب النفسي وعلم النفس الاجتماعي:

الأساتذة سليّم عمّار، محمّد غربال، زكيّة بوعزيز، وعلياء بفّون التي كان أثرُفيّ إذ كانت تدرّسنا، تحت التّسمية العريضة "علم النفس العام" موادّ عديدة: الأنتروبولوجيا، الأتنولوجيا، وكانت تحدّثنا عن علماء وباحثين أمثال:جيرمان تيليون (Germaine Tillion)وكتابها "الحريم وأبناء العم والخال"، وعن فيلهالم رايش(Wilhelm Reich)، وماركيز(Herbert Marcuse)، وفروم(Erich Fromm)، وفرويد (S. Freud) وكتابه "الطّوطم والحرام". كان برنامجها دسما لكن كنّا نستوعب كلّ شيء. كان في ذلك انفتاح كبير على الآخر !

مجلـــة الآخـــر:

كيف كنت تتقبّل تلك المعلومات وتلك المعارف ؟ هل كان لكلّ ذلك صدى بداخلك ؟ وكأنّك كنتَ مستعدّا لذلك.

ريـــاض بـــن رجـــب :

كنتُ مستعدّا إلى حدّ ما للاستماع إلى كلّ ذلك وكان لهفعلا صدى بداخلي ! كان كلّ شيء يهمّني، وكنت أبحث عن الكتب لقراءتها حتّى أفهم أكثر. واستنتجتُ أنّني كنتُمطّلّعٌ خيّرتُ عدم التبجّح بمعرفتها أمام أصدقائي مفضّلا بقاءها بداخلي.

مجلـــة الآخـــر:

هل هذا من باب عدم الثّقة في تلك المعارف؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

هذا مُمكن. كنت ألاحظ لمّا أحضر دروس الأستاذ ليبوفيسي، أنّنيبصدد تداركنقصًا في تكويني النظري والتطبيقي السّابق. وقلتُ في نفسي: "لا بدّ لي من الصّمود !": أنْ أُواجِهَ لأوّل مرّة في حياتي مجال علم النفس المَرَضي للطّفل ومجال الطبّ النفسي للأطفال مع الأستاذ ميزاس(Misès)، ومجال علم نفس الجنين مع الأستاذ ليبوفيسي(Lebovici)، ثمّ مجال اللّسانيات وعلم النفس اللّساني مع الأستاذ فرانسوا(François)، ومجال مناهج البحث مع برّون(Perron)، ومجال الاتنولوجيا وعلم الإنسان وأنتروبولوجيا الصحّة مع مارك أوجي (Marc Augé)وكذلك التّطبيق والممارسة في المجال النفسي، فذلك كلّه بمثابة

التحدّي الحقيقي بالنسبة إليّ. عندما بدأتُ التدريب الميداني (التربّص) بمؤسسة فاليه[18] بأحواز باريس،كنت أكتفي بالمشاهدة والملاحظة، واكتشفتُ الكثير. كنت أعاين أمراضا عقلية منها: ذُهانات الأطفال، والأشكال المتعدّدة للتوحّد، واكتشفتُأمراضًا أخرى منها حالات عديدة مِن "التّنافر التطوّري"[19] (تشخيص وضعه الأستاذ ميزاس ووقع اعتماده من قبل "التصنيف الفرنسي للأمراض النفسية للطفل والمراهق")[20].

كنتُ أغوصُ في كلّ تلك المجالات في نفس الوقت. كنتُ بفرنسا لدراسة موضوع محدّدٍ عيّنه لي أستاذي الدكتور محمد غربال. قدّم لي الأستاذ غربال نسخة من أطروحته للدكتوراه في الطبّ حول موضوع الهجرة والشّخصية المغاربية. واقترح عليّ ضرورة قراءة كتاب الأستاذ عبد الوهاب بوحديبة "الجنس في الإسلام" (بالفرنسية)[21]. فتح لي الدكتور غربال باب البحث في مجال الهجرة واللغة وأطفال الهجرة والهويّة، الخ. وكنت أتساءل: أيَّ لغةٍ يتكلّم أطفالُ المهاجرين ؟ لغة الوالدين أم لغة البلد المُضيف ؟ أهي حالة ثنائية اللّسان (bilinguisme) أم هي حالة نصف اللّسان (semi-linguisme) ؟ أهي حالة تعكس وجود ثنائية الثقافة (biculturalisme) أم حالة عدم امتلاك أيّ من الثقافتين (semi-culturalisme) ؟... واكتشفتُ كذلك وجود ظواهر عديدة منها اللغة الخليطة (interlangue)، الخ.

مجلـــة الآخـــر:

في دروسك بالجامعة، وخاصة دروس علم النفس اللّساني، كنتَ تؤكد على أهمية الهجرة، بما في ذلك هجرة الأنبياء، وقيمة الهجرة التي تدفع بالإنسان إلى ضرورة التأقلم مع الأوضاع الجديدة واستنباط أساليب تفكير مناسبة لها.

ريـاض بـن رجـــب :

يبدو لي أنّ الهجرة تساهم في تكوين مواهب المبدعين والعلماء وصقلها. إنّ أهمّ أصحاب النّظريات والمخترعين والمبدعين والمفكرين والأنبياء هم أناس عاشوا تجربة الهجرة. ومثال على ذلك "أدب المهجر" كما يُمثّله كلّ مِن جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي...

مجلـــة الآخـــر:

ما هو السرّ في ذلك حسب رأيك ؟ هل هو الابتعاد عن منطقة الرّاحة وعدم الإقتصار على المجهود الأدنى...

ريـاض بـن رجـــب : هو الذّهاب للإكتشاف، الذّهاب للصّيد !

مجلـــة الآخـــر:

يعني النّهل مِن منابع أخرى، مع القدرة على الخروج من ذلك ؟

ريـاض بـن رجـــب :

نعم، هي ضرورة الابتعاد والتخلّي وأخذ المسافة عن العائلة والأقارب لكي يبحث الإنسان بمفرده عن الحقيقة، عن المعرفة.

مجلـــة الآخـــر:

عِلْمًا وأن ذلك يكون عادةً موازيا لتجربة مُوجعة !

ريـاض بـن رجـــب :

تجربة شخصية، تجربة وجودية أليمة لأنّ المعرفة تُفتكّ مع الابتعاد ومع مقدار من العُزلة.

مجلـــة الآخـــر:

كيف قرّرت أن تسافر، أن تغادر تونس لمواصلة دراستك ؟هل تمّ هذا أيضا من باب البداهة ؟

ريـاض بـن رجـــب :

وهنا أيضا، الصّدفة الغريبة. كانت آنذاك أستاذة الفلسفة فاطمة حدّاد نائبة للعميد بكلّية منّوبة، تتابع عن كثب مسيرتي. وهي التّي وعدتنيالمساعدة للحصول على منحة لمواصلة دراستي في اختصاص "علم النفس المرضي للطّفل" بباريس.

وهذا يُذكّرني أيضا بمقابلتي الأولى مع الأستاذ روجي ميزاس الذي مكّنني من القيام بتدريب ميداني بـ"المركز اليومي" وكان يُديره الدكتور باتريس ديبيس (Patrice Dubus) الذي صار صديقا لي فيما بعد. وخلال تلك المقابلة، عرض عليّ الدكتور ميزاس فكرة أن أكونَ عضوا بالجمعيّة الفرنسية للطب النفسي للأطفال والمراهقين[22] ! هل استمعتُ إليه جيّدا ؟! كان هذا غير متوقّع بالنسبة إلى شخصٍ وضع قدميه للتوّ بباريس حاملا لأستاذية في علم النّفس. وبذلك وجدتُ نفسي أحضر اجتماعات هذه الجمعية وندواتها وأشغالهاوالتّي كان أعضاؤها من كبار الأخصّائيين في مجال الطبّ النفسي والتحليل النفسي الفرنسي.

مجلـــة الآخـــر:

وفي أي وقت تأكّدتْ لديك جدارتك بهذه الفُرصة التي قُدّمتْ لك ؟

ريـــاض بـن رجـــب :

بداية من الفترة التي لاحظتُ فيها أنّني بصدد فهم ما يُقال. وعندما يُصبح الفرد عضوا بالجمعية الفرنسية للطب النفسي للأطفال والمراهقين، فهو يتلقّى كذلك مجلّة "الطب النفسي والعصبي للطفولة والمراهقة"[23] بصفة منتظمة، وفي هذه المجلّة العديد من المؤلفين والمقالات للإكتشاف والقراءة. وشاءتالصّدفة كذلك أنّني أنشر لاحقا أولى أوراقي العلمية في هذه المجلّة بالذات!

مجلـــة الآخـــر:

ما كان ردّ فعلك لمّا كنت ترى نفسك حاضرا جنبا إلى جنب مع أسماء هامّة ومأثّرة علميّا ؟

ريـــاض بـن رجـــب :

شعورٌ بالفخر والنّجاح والرّاحة النفسية. كنتُ أفسّر هذا بالرجوع إلى المنطق الثقافي والمعتقدات المغاربية والإسلامية بصفة عامّة، فأقول إنّ هذا تجسيمٌ لما يُسمّى رضاء الوالدين، ولا أكتفي بذلك بل أُؤمن أيضا بـ"رِضاء الأجداد".

ولم تكن هناك تلك الأسماء فحسب. كان مركز الطب النفسي الذي أقوم فيه بالتدريب الميداني، تُقدّم به عروض لأشرطة مسجّلة لمقابلات اكلينيكية قام بها الدكتور ميزاس، وكان يناقشها فيما بعد مع الحاضرين. وكانت هناك دروسٌ كلّ صباح يوم الثلاثاء تؤمّنها أسماء أخرى لامعة مثل ديديي أنزيو (Didier Anzieu)، سالومون رسنيك (Salomon Resnik)، ليون كريسلير (Léon Kreisler) وغيرهم من المشاهير في هذا المجال.

كانت هناك العديد من الاكتشافات بهذا المركز إلى درجة أنّني كنت أذهب لمقابلة الأستاذ ميزاس آخر كلّ سنة لأشكره على تمكينه لي من القيام بهذا التربص وأطلب منه مباشرة إمكانية مواصلة التربّص للسنة الموالية، وكان يوافق دون تردّد. هذا ما جعلني أستفيد من خبرات هذا المركز لمدة ثلاث سنوات.

وقرّرتُ أن أقوم بتربص السنة الرابعة بمركز ألفريد بينيه (Centre Alfred Binet)، وكان ذلك بفضل مساعدة أستاذي ليبوفيسي. وتعرّفتُ في ذلك المركز عن قرب على أسماء أخرى لامعة[24] وعلى طرق علاج مغايرة ومفيدة.

مجلـــة الآخـــر:

حينها قرّرت أن تُقنّن اختبار "المقاييس التفاضلية" على البيئة التونسية وأن تقوم بربط الذكاء بالثقافة ؟

ريـــاض بـن رجـــب :

وهي أيضا مغامرة أخرى ! كان أوّل اطّلاعي على هذا الاختبار بمركز فالييه. وقد وقع تصميم هذا الرائز "المقاييس التفاضلية للفعاليات الذكائية" بمركز فالييه من قبل السيدة ميشال برون بورلي (Michèle Perron–Borelli).

في أواخر شهر جوان 1987، عدتُ إلى تونس بشهادة دكتوراه. وبعد الصّيف مباشرة من نفس السنة، قمتُ بالتسجيل في شهادة دكتوراه الدّولة بجامعة تونس وكان هدفي القيام بأقلمة هذا الرائز وتكييفه مع البيئة التونسية في إطار بحث أساسي. وتمّ الإشراف على هذا العمل من قبل كلّ من الأستاذ عبد الوهاب بوحديبة من تونس والأستاذ روجي برّون من باريس. وبعد عشر سنوات، قمتُ بصياغة مؤلفات ومقالات عديدة مرجعها الأساسي هذه الدكتوراه.

مجلـــة الآخـــر:

في سنة 2010، قمتَ بنشر مقال بمجلة "توبيك" (*Topique*) في باريس خصّصته لتقديم "التحليل النفسي بتونس، تاريخه وجردٌ لواقعه الحالي"[25]. وقدّمتَ الموضوع من عديد الزّوايا: التاريخية والتطبيقية والنظرية. ما هي دوافعك على هذا العمل ؟ إنّه عملُباحث أخصّائي في مجال التاريخ !

ريـــاض بـن رجـــب :

فعلا. قمتُ ببحث تاريخي. اتّصلتُ بعديد الأشخاص وحاولتُ الحصول على شهادات، وأردتُ من كلّ ذلك التوصّل إلى ترك آثار مكتوبة. أنا أعتقد أنّه من المؤسف أنّنا ننتمي إلى ثقافة لا تهتم كثيرا بترك بصمات مكتوبة وموثّقة. إنّها ثقافة ذاتُ طابع

شفوي. وأردتُ أن أخلّفَ نصّا مكتوبا وموثّقا حول تاريخ ثلاثة ميادين علمية وعلاجية هامّة وهي: مجال الطّب النفسي (la psychiatrie) ومجال علم النفس (la psychologie) ومجال التحليل النفسي (la psychanalyse) وتحديدافي البيئة التونسية. وقد نجحتُ فعلا في مقابلة العديد من الأشخاص والشخصيات الذين قدّموا شهادات تاريخية هامة جدّا في هذا المجال ومراسلتهم. لقد بدأتُ هذا العمل منذ مدة بعيدة! ثم لمّا حانت الفرصة وأفردت مجلة "توبيك" عددا خاصّا حول هذا الموضوع، قرّرتُ كتابة نصّ في الغرض. وفي الأثناء قابلتُ السيدة ليديا تورازي (Lydia Torasi) وكانت أوّل محللة نفسية بتونس. كان لي شرف مقابلتها بمدينة نيس (فرنسا) حيث استقرّت منذ مغادرتها لتونس. وكنتُ أريد كذلك أن أخلّد ذكرى أشخاص وتكريمهم قبل أن ينساهم التاريخ بسرعة من بينهم هذه السيّدة الفاضلة.

مجلـــة الآخـــر:

هل أنّ القراءة العابرة للثّقافات ضرورية في الأبحاث النفسية المَرَضيّة بالنسبة إليك ؟

ريـــاض بـن رجـــب :

لا يمكن لي أن أقوم بمقارنات بين أشخاص لا يعيشون في نفس البيئة الثقافية. كنتُ حسّاسا لهذا الموضوع بصفة مبكّرة، من خلال ما كنتُ أستمع له صغيرا مِن قبل الجدّات، وما كنت ألاحظه من اختلافات ثقافية، وما يُمكن أن يفرّق أو يميّز الأفراد بعضهم عن بعض أو بين العائلات. إذَا أخذنَا مثالا على ذلك المنطقة الجغرافية لشبه جزيرة الوطن القبلي (ولاية نابل)، سنرى أنّ بها العديد من الاختلافات، إذ نجد المستويين الحضري والرّيفي وما بينهما. نرى هذا على عديد المستويات: اللّساني، العادات والتقاليد، الخ. كنتُ ملاحظًا للاختلافات في العادات والتّقاليد لا فقط من جهة إلى أخرى بل مِن قرية إلى أخرى. ولمّا زرتُ الجنوب التونسي، شاهدتُ الفوارق الموجودة على مستوى اللباس والطبخ، وكذلك على مستوى المِخيال والعادات، الخ.

مجلـــة الآخـــر:

وهل يعني هذا أنّ المرافقة العلاجيةيجب عليها حتمًا أن تأخذ بعين الاعتبار هذه الخصائص الثقافية ؟

ريـــاض بـن رجـــب :

طبعا ! كنت ألاحظذلك منذ كنتُ أعمل بمركز الطب النفسي للأطفال رفقة الأستاذ الدكتور محمّد حليّم. وباعتبار أنّه كان المركز الوحيد للطبّ النفسي للأطفال والمراهقين بتونس، كنّا نستقبل أطفالا من كافة أنحاء الجمهورية التونسية ومِن كلّ البيئات الاجتماعية، ولم يكونوا من البلاد التونسية فقط، إذ كنّا نفحص ونعالج أطفالا قادمين مِن ليبيا والجزائر وفلسطين وفرنسا، الخ. كان هذا المركز مختبرا للبحث بأتمّ معنى الكلمةوتعلّمنا منه الكثير ! وهذا ما ساعدني شخصيّا على القيام بتقنين الاختبار الفرنسي للذكاء وأقلمته مع البيئة التونسية. مكّنني هذا العمل من اكتشاف مصطلحات وألفاظ خاصة بأطفال كلّ منطقة من مناطق الجمهورية التونسية رغم صغر حجم البلاد جغرافيا. تعلّمتُ مفردات جديدة. وباعتباري أخصائيًّا اكلينيكيا، أعتبر نفسي في طور التعلّم المستمر، وكان هذا ضربًامِن التواضع جُبِلت عليه نفسي،فباعتبار أنّ الأخصائي النفساني يتعلّمُ، فهو بالتالي ليس ذلك الشخص الذي يمتلك بصفة مباشرة العِلم أو الحقيقة، حالَ حُصوله على شهادة علمية.

مجلـــة الآخـــر:

ما هو المكان الذي يحتلّه مجال التحليل النفسي الثقافي في تونس ؟

ريـــاض بـن رجـــب :

هناك محاولاتٌ وقعت في هذا المجال، وهي محاولات حول التحليل النفسي الثقافي (Ethnopsychanalyse) والطّب النفسي الثقافي (Ethnopsychiatrie)، منها مساهمات الأساتذة الدكاترة سليّم عمّار والصدّيق الجدّي ومحمّد غربال. يبدو لي أنّ مجال التحليل النفسي الثقافي هامٌّ باعتبار أنه لا يمكن لنا أن نقترح طريقة التّحليل النفسي على شخصٍ لم يطلب هذا المنهج. ومن جهة أخرى وجب تعديل التّحليل

النفسي أو تكييفه مع الثقافة نظريّا وعمليّا. يجب أقلمته كما نُؤقلِمُ اختبارا أو كما نعدّل حوارا في مقابلة اكلينيكية حسب طبيعة اللّوحة السريرية التي أمامنا. يكفي أن نطّلععلى ما قام به – على سبيل المثال – الباحث والمحلّل النفسي جورج دوفورو (Georges Devereux) لنفهم أنّه مِن الضّروري أن نقوم بعملية تلطيفِالطريقة وتليِينهاتقنيّا ولِمَ لا نظريّا. هذا لا يمسّ حتمًا مِن قيمةِ ومن دقّة وصرامة "الإطار" الذي يجب إنشاؤه عند بداية كلّ عقد علاجي. فعلى سبيل المثال، مِن المهمّ معرفة أنّ العديد من العائلات المحافظة التونسية، تقتضي فيها آداب التربية السليمة أن لا ننظر مباشرة في عيني مُخاطبنا. وهذا نتعلّمه منذ الصّغر. وهؤلاء الأشخاص الذين لا يرفعون نظرهم إلى مخاطبهم ليست لديهم أعراض التوحّد. فمن المهمّ أن يكون الأخصائي الإكلينيكي قادرا عند إجراء التشخيص الفارقي، على التمييز بين ما هو ثقافي وما هو مَرَضِي سريري.

مجلـــة الآخـــر:

هل هناك خصوصيات تونسية أخرى حسب رأيك ؟

ريـــاض بـن رجـــب :

إنّ للعائلة التونسية خصوصيات، مثلها مثل العائلة المغاربية بصفة عامة والعائلة العربية بصفة أوسع. إنّها عائلةٌ تُشكّل الفرد وتصقلهبطريقة خاصة، ولها علاقات اجتماعية ذات طابع خاصّ، ونموّ نفسي خاصّ أيضا. يجبُالاطلاع على بحوث الدكتور محمد غربال ومنشوراته في هذا الصّدد[27]. ثمّ إنّ خطاب التونسي مشحونٌ بطريقة عفويّة بمواضيعَ حول مفاهيم القَدَر والدَّيْن النّفسي (بما في ذلك الإعتراف بالجميل للآخر). ولا يُمكن لنا أن نتغافل عن هذا الأمر،كما لا يُمكن لنا أن نكون مُصابين بالصّمم تجاه كلّ هذا. يجب الأخذُ بعين الاعتبار كلَّ هذه الجوانب. هذا ما دفعني إلى تنظيم ندوات علمية وإلى تأليف كتابات حول هذه المواضيع. إنّنا لا نرى مثل هذا الخطاب في الخارج بهذه الحدّة، إلاّ عند المهاجرين. ثم إنّ شبكة قراءة"علم النفس المرضي عبر الأجيال" تمكّنني من ملاحظة أنه، بصرف النظر عن أهمية **الطّقوس**، وخاصة منها طقوس الفِدية (أو الفداء) والإعتذار والاستغفار، فإنّ العديد من البنود الثقافية الأخرى تحمل في طيّاتها معانيَ عديدة وعميقة وذات دلالات نفسية واجتماعية كبيرة.

فلنأخذ مثلا أهمية **التّسمية**(تسمية المولود الجديد)، نلاحظ أنّ بعض أسماءالأشخاص تحمل ضمنيّا معاني الإصلاح: الندم والاستغفار والتّوبة، حتى لا أذهب أبعد من هذا. أنا أصفُ هذه الأسماء بـ "الأسماء المُصلحة" أو "أسماء التّدارك". فهي مُحمّلة شعوريا أو لا شعوريا على تدارك "أخطاء" الجيل أو الأجيال السابقة وإصلاحها.

كما يُمكن أن نطبّق نفس القراءة عند التمعّن مليّا في **المهن** ودَلالاتها. فنجد مثلا صنفا خاصّا مِن المهن التي تتمحور حول "محبّة العدل": رجال القانون، القضاة، المُحامين، رجال الأمن، الخ...يبدو لي أنّ هؤلاء مفوّضون لا شعوريا لإصلاح مَظلمة عائلية مَا وتقويمِها.

مجلـــة الآخـــر:

أنت تعطي مكانة كبيرة كذلك لفترات ما حول الحمل والولادة. وكنتَ تقول دوما في دروسك إنّ طريقة العمل الاكلينيكي مع الكهول تتغيّر إذا اشتغلنا في البداية مع الأطفال.

ريـــاض بـن رجـــب :

بالضّبط. علّمني العمل مع الأطفال الكثير في هذا المجال. وحين أسألُالشّخصَ الذي يطلب الاستشارة عن فترات ما حول الولادة، أتحصّلُ بصفة شبه دائمة على معلومات تؤكّد أهمية الدور الذي تلعبه هذه الفترات في تكوين المرض أو الاضطراب أو في طبع الشّخص.أعتقدُ أنّ الإكلينيكي الذي يشتغل عادةً مع الكهول لا يرى الأمور بنفس هذه الطريقة باعتبار أنّ له شبكةَ ملاحظات وشبكةَ مقابلات وأسلوبَحوار خاصّة به.لكن لمّا تكون لنا تجربة ميدانية هامّة مع الأطفال، نرى الكهل بطريقة جديدة مختلفة: أُلقي أسئلتي بطريقة أخرى. أستطيع القول أنّ الأخصائي في مجال الطفولة له بُعد نظر إضافي لأنه يتفطّن إلى جوانب لا يرى أهميتها أخصّائي الكهول وقد لا يتفطّن إليها أصلا. تلك هي أهميّة فترات ما حول الحمل والولادة أي: فترة ما قبل الحمل ففترة الحمل ثمّ

فترة ما بعد الولادة. وهو ما يُعطي للإكلينيكي أفكارا جديدة وإضافية حول اللّوحة المرضيّة، ويعطيه المزيد من الإضاءة والإنارة حول طريقة العلاج.

مجلـــة الآخـــر:

يقول الدكتور البريطاني وينيكوت (Winnicott):" لا يوجد رضيعٌ بمفرده"« Un bébé seul n'existe pas »، وكأنّ العمل الإكلينيكي مع الطفل يُحتّم العمل الإكلينيكي مع الأمّالمحيطة به ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

طبعا ! كان الطّفل في أوّل الأمر ببطن أمّه، ذلك الفضاء الحاوي الأوّل، ذلك المحيط الذي يرسم الحدود الأولى للجنين. فما هي التجارب التي يُمكن أن يعيشها الجنين خلال أشهر الحمل وهل هي تسعة ؟ وماذا يحدث أثناء كامل هذه المدّة الزّمنية ؟ وكيف عاشت الأمّ وهي حامل ؟ هل كانت سعيدة أو حزينة ؟ هل فقدت شخصًا عزيزا عليها ؟ هل عاشت صدمات ومن أيّ نوع ؟ وقبل هذا: كيف تمّت عمليّة الحمل ؟ مِن باب الصّدفة ؟ أم هو حملٌ مُبرمج ؟ أمسبقته معاناة ومعالجة طبّية ؟ الخ.... ثمّ في أي ظروف تمّ الوضع ؟ وكيف كانت فترة الرّضاعة ؟ وكم دامت فعلا ؟ إلخ.

كلّ هذا يُمكن أن يترك آثارا وأن ينتقل إلى الطّفل وهو ببطن أمّه، وعكس ذلك واردٌ أيضا. أذكر أنّي قابلتُ مرّة امرأةً كانت حاملا بتوأم: ولد وبنت. كانت خائفة وحزينة لأنّها كانت مُعنّفة من قبل زوجها، وكانت تُحسّ بأوجاع حادّة بالبطن،وتعتقد أن ذلك ناتج عن اضطراب في الجهاز الهضمي بسبب تعرّضها للعنف. ثم لمّا ذهبت إلى الطبيب أخبرها بأنّ أوجاعها ناتجة في الحقيقة عن كونها فقدت ابنتها وهناك استحالة التدخّلالطبّي باعتبار أنّ بالبطن جنينا ثانيا وهو الذّكر. كان عليها الانتظار إلى حين فترة الولادة. ومن حسن حظّها أنّها كانت بالشهر الأخير من الحمل. نُلاحظ أنّ هناك حالة حُزن وجِداد لم تتمكّن الأمّ أن تعيشها بصفة طبيعية، بسبب جمعها بين فقدان البنت وبين استمرار الطفل في النموّ. وكانت تعتقد أنّ ابنتها تالفة التّكوين وتخشى أن "تُعدي" أخاها، وقد تصل العدوى إلى الأم نفسها. عاشت الأمّ إذن هذه الصدمة الأولى.

لكن سُرعان ما تبعتها صدمة أخرى: فقد وُلد الابن حيّا لكنّ الأطباء حملوه بسرعة إلى قسم العلاج المكثّف. لم تكن الأمّ تفقه شيئا ممّا يحدث. وبعد حين، يأتي مَن ينبئها بوفاة ابنها. صدمات متتالية، حزنٌ متتال. كانت غاضبة من الأطباء وكانت تقول: "فقدتُ ابنتي، طيّب. كنت أعلمُ بذلك منذ شهر، وكانت ببطني. لكن لماذا أُحرم من رؤية ابني رغم أنه ولد حيّا ومات لاحقا ؟ وددتُ أن أراه !ذهب دون أن أراه". فقدٌ ثنائي، صدمة ثنائية، وهذا يترك آثارا في الأمّ هذه المرّة لأنها فقدت الثقة في الأطباء من ناحية ولن تقتنع بإمكانية حتميّة وفاة ابنها. وهذا يضيف شكّا آخر وهو إمكانية تعرّض ابنها للسرقة والتجارة.

بهذا المثال، أردت أن أبيّن أنّ الأمور تسير في الاتّجاهين. إذ أن أحاسيس الأمّ ومشاعرها يُمكن أن تُنقل إلى الجنين. لكن هنا نرى عكس ذلك: كيف تكون الأمّ الحامل وهي مجروحة نفسانيا ؟ وكيف يُمكن لها أن تردّ الفعل في مثل هذه الحالات ؟ وبالطبع، عاشت هذه الأم فيما بعد فترات متلاحقة من الحالات الاكتئابية، وكان من الصّعب عليها أن تقف على قدميها مجدّدا. هذا هو الوصف المناسب فعلا. وكانت تتساءل عند كلّ بداية فترة حمل جديد: "هل أنا قادرة على بثّ الحياة، على أن أحمل الحياة ؟" لأنّها كانت قلقة وخائفة من الاحتمالات السّلبية للحمل:هل هي قادرة أوّلا على أن تحمل جنينا كامل فترة الحمل ؟وما الذي يضمن ثانيا أن تكون النتيجة طفلا بقيد الحياة ؟! أُحيلُ القرّاء والمتطلّعين إلى مثل هذه الحالات على كتابي "ذاكرات الجسد" (*Mémoires du corps*) لأنه يحتوي على أمثلة لحالات أخرى مشابهة ومختلفة.

مجلـــة الآخـــر:

إنّها أمثلة أخرى تدفعنا إلى البحث وسبر الأغوار عبر الأجيال.

ريـــاض بـــن رجـــب :

نعم، دائما ! ونتساءل عن مستقبل الطّفل الذي سيأتي فيما بعد. كيف سيكون منتظرا مِن قبل الأم والأب ؟ وكيف سيتصرّف هذا الطّفل فيما بعد في محيطه، مقارنة بالعمليات الحسابية العائلية اللاشعورية ؟

مجلـــة الآخـــر:

أنت تربط في أغلب الأحيان **الفترات المحيطة بالولادة بالعوامل** الثقافية. وأذكر بصفة خاصّة كتابك "علم النفس المَرَضي عبر الثقافات للطفل والمراهق"[28]، أين تقدّم العديد من النّصوص مع قراءات وتأويلات شخصية خاصة بك في خصوص مرض الصّرع (l'épilepsie) مثلا.

ريـــاض بـــن رجـــب :

بالضبط ! أنا أقول وأكرّر دائما إنّ المقابلات الإكلينيكية هي التي تعلّمنا وتعطينا الدّروس في كلّ المجالات. إنّ المقابلات السريرية هي التي تدفعنا إلى التفكير والبحث والاكتشاف. النصّ الذي تشيرين إليه يحتوي على حالة نادرة، إذ أنّها تمزج بين الهستيريا والصّرع، تُدعى بالفرنسية une hystéro–épilepsie ويُمكن تعريبها"الهستيريا الصّرعية". وهو مثال يُبيّن بوضوح كيف أنّه من الصّعب أن نفصل بين التّشخيصين لأنهما متكاملان في هذه الحالة.

مجلـــة الآخـــر:

وتذكر كذلك الطقوس المتعلقة باستعمال "المفتاح" عند حدوث نوبة صرع.

ريـــاض بـــن رجـــب :

ورمزيّة هذا المفتاح ! وهذا أيضا عنصرٌ نفسي تحليلي وثقافي بامتياز. يبدو لي أنّه من غير المعقول أن لا نحترم مثل هذه الطقوس والمعتقدات. أن نُؤمن بها أو "نعتقد فيها" فهذا شيء آخر. فلنكتفي بأخذها بعين الاعتبار أوّلا بحُكم وجودها.

مجلـــة الآخـــر:

هل أنّ القطع مع الطّقوس ومع الثقافة يُمكن أنيكون من أسباب التعبير عن الأمراض العقلية في أذهان العامة خصوصا ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

يبدو لي أنه علينا احترام الطّقوس. يُمكننا التحاور معها أو مقاربتها، لكنّها أشياء مهمّة في الحياة. لا يُمكننا العيش دون طقوس. حياتنا مليئة بها. هناك طبعا تطوّر لأشكال الطقوس ومحتوياتها، مِن بينها طقوس الموت والحِداد على سبيل المثال. مِن المذهل أن نرى في البيئة الريفية التونسية مظاهر الحِداد الجماعي وكيف أنّ هذا يُخفّف مِن وقع الحزن مع تلك الفترات والمراحل المقنّنة التي يجب احترامها مقارنة بما يجري الآن في بعض المجتمعات الغربية حيث يكون الشخص أحيانا بمفرده أمام الميّت !

مجلـــة الآخـــر:

ماهي مكانة دراسة **الفترات المحيطة بالولادة بتونس وآفاقها ؟**

ريـــاض بـــن رجـــب :

أعتقد أنه يجب الاهتمام أكثر بهذا الحقل. يجب تكوين أخصائيين في علم النفس وتوزيعهم على مختلف أقسام طبّ الرّضيع، وطب التوليد، وطبّ الأطفال، الخ، لأنّ إمكانية القيام بالتشخيص المبكر عالية جدّا في هذه الفترة حيث يُمكن أن نعاين ونكتشف أُولى اضطرابات الشخصية أو تلك التي تُهدّد شخصية الطّفل (ذكاءه وحركيّته، الخ)، واضطرابات العلاقات الأوّلية بين الأمّ وطفلها، أي أُولى مؤشرات الهشاشة وأعراضها. يُمكن أن نكشف عنها بسرعة أو أن نشتمّ رائحتها، وبالتالي معالجتها وإصلاحها بسرعة. فبقدر ما يكون الكشف مبكّرا بقدر ما يكون التدخّل سريعا وناجعا. وهو عمل استباقي ووقائي من الأمراض النفسية والعقلية بما في ذلك التوحّد والذهان، الخ.

مجلـــة الآخـــر:

لنعد إلى طريقة عملك: يُمكن تشبيهها بعمل الحِرَفي (لك دقّة ملاحظته ومهارته)، وعمل أخصائي التّاريخ (ثراء المعطيات والمراجع ودقّتها، والقدرة على التنقيب في الأرشيف)، وأخصائي علم الآثار (العودة إلى المنابع، البحث عن البصمات، والكشف عن الجوانب الخفيّة أو المخفيّة والرموز، وإكمالُ القطع الناقصة من اللّغز في حياة الفرد والمجموعة، الخ). هل توافقنيفي هذه القراءة ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

قراءة رائعة ! ليس لذلك مِن وصفة خاصّة. لذلك فإنّي أعود إلى مقولة تيودور رايك (Reik): "يولد الشّخص أخصّائيا

نفسانيا، ولايصيركذلك[29]" (*On naît psychologue, on ne le devient pas !*). ليست هنالك وصفة تُشير عليّ بالحلّ وتُرشدني إلى كيفيةالتعامل مع هذه الحالة أو تلك.وكأنّ الأشياء تتدفّق من مصدرها. وهذا لا يعني أنّنا أمام نجاحات فقط، بل هناك أيضا إخفاقات، وكم عشتُ مِن حالة فشل وإخفاق. وأكادُ أقول "لحسن الحظّ" لأنّ الحالات الصّعبةَ هي التي تجعلنا أمام وضعيات وطرق مسدودة تدفعنا بدورها إلى مزيد التفكير والبحث لإيجاد الحلول.

مجلـــة الآخـــر:

وهناك أيضا خصوصيات ما يُسمّى بالتّحويل (Le transfert) والتحويل المضادّ أو العكسي (Le contre-transfert)، أليس كذلك ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

وهذا ما يجعل العملَ العلاجي فعلاً صعبا وفي نفس الوقت مُمتعا. فأنت في وضعية تحدٍّمستمرّ مع نفسك لأنك تحاول فهم الحالة أو الوضعيّة. إنّ الحالات الصّعبة موجودة بكثرة، وهي تُمثّل بالنسبة إلينا حواجز وإخفاقات. وقد اعترفَ فرويد بإخفاقاته بكلّ تواضع.

مجلـــة الآخـــر:

لكن هذه الإخفاقات مع بعض الحالات تُنقذ حالات أخرى.

ريـــاض بـــن رجـــب :

بالضّبط. لأننا نواصل التفكير في هذه الإخفاقات وفي أسبابها. ونتساءل: "قد لا تكون إخفاقاتٍ. هناك عمل ما تمّ إنجازه. وإذا قرّر البعض مِن طالبي العلاج الاكتفاء بقدر معيّن مِن الحصص العلاجية، فلعلّ هذا يعني أنهم أحسن حالا ممّا كانوا عليه. وطبعا هناك من يقرّر العودة لمواصلة المُقابلات.

مجلـــة الآخـــر:

أطلب منك أن نعود لنتحدّث حول مواضيع النّدوات العلمية المُنجزة. لقد قمت بإنجاز 13 ندوة علمية دوليّة: "الأخلاق في علم النفس" (2001)، "القَدَر" (2002)، "الدَّيْن" (2003)، "مِن الصّورة إلى المخيال" (2004)، "الطّقوس" (2005)، "المرجع" (2006)، "المُعتقد" (2007)، "الأبوّة" (2008)، "المشهد" (2009)، "الجسد" (2010)، "الحُدود" (2012)، "الأساطير" (2014)، "الآثار" (2016)[30]. كيف يتمّ اختيار هذه المواضيع ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

إنّها تأتي بصفة عفويّة! إنّها مواضيع تفرض نفسها. هناك صدى لهذه المواضيع في نفسي. أعتقد أننا مطالبون بأن نفكّر مليّا حول هذه المسائل. "الأخلاق في علم النفس" موضوع تأسيسيّ. ثم مواصلة التفكير حول مواضيع أخرى نعيش فيها وحولها: ما هو القَدر ؟ وما هوّ الدَّيْن ؟ وماهي الطّقوس ؟ الخ، وطبعا، ماعلاقة هذه البنود الثقافية والعقائدية والدّينية بالصحّة النفسية والتوازن النفسي ثم بالاضطرابات النفسية ؟ وهي تساؤلات شغلتني في حياتي الخاصة ثمّ المهنية بحكم اختصاصي في علم النّفس. عندما نُركّز على الخطاب اليومي للأفراد، نستمع بصفة دورية إلى كلمات: "مكتوب"، "إن شاء الله"، "كان كتب"، هذا شيء كاتب"، "موجود في اللوح المحفوظ"، إلخ. كلّ شيء مكتوب بمعنى مُقدَّرٌ ومبرمَج وحتميّ بما في ذلك الأحداث الكبرى مِن زواج أو طلاق أو ولادة، أو وفاة، أو مَرض، أو إعاقة، أو حادث، أو عقاب، الخ. فلنُتابع عن كثب وبجرأة هذه المعتقدات وهذه السّلوكات لنفهم انعكاساتها على نفسية الأشخاص، وإن كانت هذه المواضيع مُخيفة أو لنقل على الأقلّ مُزعجة.

مجلـــة الآخـــر:

لعلاقتها بالمقدّس ؟

ريـــاض بـــن رجـــب :

نعم، هي مواضيع تحيط بها القداسة. فالحديث أو النقاش حول مفهوم "القَدَر" يجعلنا نربط صلة تواصل مع "ليلة القدر" وهي التي توافق حسب ما هو مألوف ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان. والحديث حول "الدَّين" لأنّنا كلّنا ودون استثناء مُدَانُونَ نفسانيا للعديد مِن الأشخاص: والدِينا وأجدادنا ومعلّمينا وأساتذتنا وأصدقائنا، ولمَ لا لأعدائنا...كلّ هذا مِن بديهيات

الحياة اليومية. فهل نحن أحرار في سلوكنا ؟ نحن لا نرى دقائق الأمور لأنّنا داخلها !يبدو لي أنّ لديّ المسافة الدّنيا اللازمة التي تمكّنني مِن رؤية هذه المواضيع التي تَطرح بالنسبة إليّنقاط اهتمام ودراسة وبحث وتأليف. وقد تكون في الواقع مواضيع أقرب إلى مجال الأنتروبولوجيا، لكنّها في كل الحالات مواضيع علميّة لها مساس مباشر بالتوازن النفسي. يجب فحص مختلف هذه المواضيع كما لو كنّا نقوم بمقطع أفقي بيولوجي لنضعه بعد ذلك مباشرة تحت المجهر.

مجلـــة الآخـــر:

أقترح عليك أن نعود إلى مواضيع بعض هذه النّدوات، ولنبدأ بموضوع "المَرجع". أيّ مرجع أو مرجعيّة تقصد ؟ يحتوي هذا الكتاب على العديد من النّصوص الهامة لمتدخّلين، من بينهم مارسال هوزير (MarcelHouser) وقي داركور (Guy Darcourt)، لكن هذا الكتاب يحتوي أيضا على تحيّة خاصّة لمسيرة المرحوم الأستاذ الدكتور محمّد غربال (طبيب نفسي وأخصائي في علم النفس ومحلّل نفسي تونسي).

ريـــاض بـــن رجـــب :

لا أريد إضاعة فرصة مثل هذه دونأن أُحيّيَ شخصية لها فضل عليّ مِن جهة التّكوين ومِن جهة الشّخصية. كان الدكتور غربال متألّقا جدّا في طريقة تمرير معارفه للطّلبة، وفي طريقة عرضه أمامنا لحالاتٍ سريرية بطريقة فريدة وطريفة، أو في طريقة عرضه السّريع لمعلومات مختلفة. لقد فتح أمامنا أبوابا ونوافذ جديدة حول مواضيع بحوث أو مراجع، أو مطالعات، الخ. ثمّ إنّه كان من القلّة النادرة ويُمكن أن يكون أوّل مَن فكّر وكتب حول النموّ النفسي للشخصية المغاربية. أعتقدُ أنّه كان من المحطّات الهامّة في حياتي، فقد سهّل عليّ استيعاب مفهوم الجيل الأول والجيل الثاني للهجرة المغاربية، وتفهّمالصعوبات التي يعيشها هؤلاء الناس: بأيّ أمتعة وأدوات ثقافية غادر هؤلاء بلدانهم ؟ وفي أيّ بيئة نشأوا ؟ مِن أي منطقة من تونس هاجروا ؟ هل هم أصحاب شهائد أو أُمّيون ؟ ثمّ كيف يُربّي هؤلاء أطفالهم ؟ بأيّ لسان (أو لغة) يخاطبون بعضهم البعض في البيت ؟ ... كلّ هذا دفعني لمواصلة البحث في نفس هذا المجال.

مجلـــة الآخـــر:

وهناك أيضا النّدوة المخصّصة لموضوع "الحُدود"، حيث قدّمتَ ورقة فريدة من نوعها حول "مُضمّدي جراح الرّوح"، وفي هذه المداخلة، قدّمتَ نفسك وكأنك شخصية "سبونج بوب" (Bob l'éponge)، أو كأنّك "عروس الصّلصال" (أُمّ طْفِيلَة)... وتحدّثتَ عن مهنة الأخصّائي النّفسي وعمّا يتلقّاه وما يتحمّله من آلام الآخرين، ولكن أيضا عن متعة هذا العمل وجماله ونُبله.

ريـــاض بـــن رجـــب :

فعلا، نتقبّل ونتحمّل بإنصاتنا، ونمتصّ !

مجلـــة الآخـــر:

ومرّة أخرى، قدّمتَ لنا مثالا آخر نابعا مِن الموروث الثقافي، وهو مثال خُرافة أو قصّة "أُمّ طْفِيلَة"، تلك العروس المصنوعة مِن صلصال، والتي تتحمّل شكوى الإنسان ثمّ تتكسر مِن وقع ما استمعت إليه.

ريـــاض بـــن رجـــب :

هذه القصّة روتها لي امرأة. نحن نتعلّم كثيرا مِن الأشخاص الذين نراهم ونقابلهم ونستمع إليهم بحكم اختصاصنا !

أحيانا يتراءى إلي أنّ فضاء الإنصات هو بمثابة المستودع! يأتي الشّخص ليُفرغ ما بداخله من أوساخ وغيرها، وأحيانا أخرى، يتراءى لي هذا الفضاء بمثابة بيت الاستحمام أين يأتي المرء ليغتسل ويتطهّر، وكأنّه يعبر نهر الغانج !وأحيانا أخرى يكون الأخصّائي بمثابة المرآة بالنسبة إلى المريض. كلّ هذه الصُور وغيرها، والتي يتشكّلها هذا الفضاء، مرتبطة كلّ مرّة بنوعيّة الحالة السّريرية التي أمامنا. إنّ فضاء الإنصات هو مساحة عبور وفضاء إيداع وهو بذلك عبارة عن مستودع أمين. وللمُعالج النفسي مهمة كبيرة جدا: أن يكون شاهدا يستمع ويُنصتُ بِما سمّاه تيودور رايك "الأذن الثّالثة"!

مجلـــة الآخـــر:

هناك جانب آخر من حياتك المهنية الجامعية لم نتطرق إليهفي الصيغة الفرنسية لهذا الحوار، ألا وهو إشرافك على العديد والعديد من أطروحات الدكتوراه، ليس للطلبة التونسيين فحسب بل لطلبة مِن مختلف الجنسيّات.

رياض بن رجب :

بالفعل، إلى حدّ السّاعة، قمتُ بالإشراف وتأطير خمسين طالبا لإنجاز أطروحات الدكتوراه في علم النفس أو في مجال علوم التربية.والمُلفت للنّظر أنّ هذا الإشراف شمل طبعا طلبة تونسيّين، لكن أيضا طلبة مِن فلسطين وسلطنة عُمان، ومن السّعودية والأردن وليبيا، وكذلك طلبة عراقيين ممّن هاجروا إلى أوروبا. وبحُكم مختلف مواضيع بحوث هؤلاء الطّلبة، فإنّي أواصل البحث والتفكير في وجوب فهم الظواهر النفسية والمَرَضيّة ومعالجتها بوضعها في إطارها الثقافي والمجتمعي والأُسري والتّربوي، إلخ.

مجلـــة الآخـــر:

لم نتحدّث عن مسؤوليتك بصفتك رئيسا لجمعية القاصرين ذهنيا بمدينة قليبية. كيف ومتى تجد الوقت للإشراف على هذه المؤسسة ؟

رياض بن رجب :

هي مسؤولية إنسانية كبيرة. أُشرف على هذا المركز خلال راحة آخر الأسبوع وأيام العُطل. وهذا المركز في حدّ ذاته بمثابة المُختبر. وهو أيضا فضاءٌ للتربصات والتكوين والتدريس للطلبة التونسيين والأجانب.

مجلـــة الآخـــر:

ما هي مشاريعك للمستقبل ؟

رياض بن رجب :

بعد أن تمّ بعث هيكل البحث الجديد "مخبر علم النفس الاكلينيكي" بجامعة تونس، أتمنّى مواصلة إنجاز التظاهرات العلمية والقيام ببحوث ومنشورات جديدة. كما أتمنّى أن أتفرّغ أكثر للقيام بترجمة بعض مؤلفاتي إلى العربية.

يُدعّم هذا المخبرُ التعاونَ والتبادل الموجودين بين "الجمعية التونسية لتطوير التحليل النفسي" و"الجمعية المتوسطية للتحليل النفسي" العضوة بـ "جمعية باريس للتحليل النفسي" (Société Psychanalytique de Paris– SPP). وسيضع المخبر كذلك ضمن مشاريعه بعث شراكات مع جامعات وفرق بحث أجنبية والقيام ببحوث ثنائية حول علم النفس السريري والثقافة.

مجلـــة الآخـــر:

في ختام هذا اللقاء، لا شكّ أنّ لك ما تُضيف ؟

رياض بن رجب :

فعلاً، يُمكن القول إنّ هذا الحوار ركّز بصفة تلقائية على النّجاحات وسكت عن كلّ العقبات والصّعوبات ومختلف الصّدمات التي تعرّضتُ لها في حياتي ومسيرتي. فلا يتسرّع البعض إلى استنتاج أنّ طريقكان مفروشا بالزّرابي والورود. كانت هذه النجاحات نتيجة لعزيمة مستمرّة وصمود أمام العقبات وتحدٍّ للعديد مِن أحداث الحياة. وهذا يستحقّ بدوره حوارا آخرَ للكشف عن تلك الجوانب الخفيّة التي تقف وراء النّجاحات والتميّز. وهوما يُلهمني فكرةتأليف سيرتي الذاتية بصفة معمّقة وتحليلية. وأكتفي هنا بالإشارة إلىأنّ مختلف مؤلّفاتي تعكس في نفس الوقت جوانب مختلفة من اهتماماتي، وهي كذلك جزءٌ مِن التحليل النفسي لِذاتي.

تـونـس فـي 8 و 13 جـوان 2016
تـحـيـيـن بـتـاريـخ 20 جـانـفـي 2019

قائمة بعض مؤلفات د. رياض بن رجب

- *Migration, psychopathologie et psycholinguistique*. Préface de Frédéric François et postface de Serge Lebovici. Tunis: Alif et la FSHST; 1995.

- *Intelligence, test et culture. Le contexte tunisien.* Paris: L'Harmattan; 2001.

- رياض بن رجب ، محمّد رياض، "تقنين اختبارات المقاييس التفاضليّة للفعاليات الذّكائية على الأطفال في البيئة التّونسية"، **مجلّة الطّفولة العربيّة**، الكويت، سبتمبر 2000، 4، ص 7-21.

- *L'éthique en psychologie* (dir). Tunis: Faculté des Sciences Humaines et URPC; 2003.

- *Les Echelles Différentielles d'Efficiences Intellectuelles (EDEI-A), version tunisienne adaptée.* Préface de Roger Perron. Tunis: Cogerh Sélection; 2003.

المقاييس التفاضلية للفعاليات الذكائية، صيغة تونسية مقنّنة. تونس، كوجار، 2003

- *Psychopathologie transculturelle de l'enfant et de l'adolescent. Cliniques maghrébines.* Préface de Daniel Widlöcher. Paris: In press; 2003.

- *Le destin en psychanalyse* (dir). Paris: In press; 2005.

- *Destin, discours et société* (dir). Tunis: CPU; 2006.

- رياض بن رجب بن رجب ، رياض، "تفسير النّصوص الدّينية على ضوء التّحليل النّفسي". بيت الحكمة، **فعاليات ندوة "التحليل النّفسي والإسلام"**. قرطاج، منشورات بيت الحكمة، **2006**، ص 39-50.

- *La dette à l'origine du symptôme* (dir). Paris: L'Harmattan; 2007.

- *De l'image à l'imaginaire* (dir). Tunis: RMR et Paris: Non Lieu; 2009.

- La psychanalyse en Tunisie. Historique et état des lieux. *Revue Topique* 2010; 110: 41-81.

- *La Référence* (dir). Tunis: C.P.U.; 2013.

- *Le rituel; de l'anthropologie à la clinique* (dir). Préface d'Alain Gibeault. Paris: L'Harmattan; 2015.

- *Figures et enjeux de la paternité* (dir). Tunis: Céli Editions; 2015.

- *Mémoires du corps*. Préface de Didier Houzel. Lyon: Césura; 2016.

- *La croyance* (dir. R. Ben Rejeb & Wahid Essaafi). Carthage, Académie Beit al Hikma, 2016.

- *La scène dans tous ses états* (dir.) Carthage, Académie Beit al Hikma, 2018.

- *Le corps intermédiaire* (dir.). Tunis, Arabesques et la Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, 2018.

مؤلفات والـد د. رياض بن رجب

بن رجب (عبد الحميد)، **الفقه المفصل في العبادات على المذهبين الحنفي والمالكي**. طبعة أولى، تونس، المطابع الموحّدة، 2003. طبعة ثانية،تونس، مركز النشر الجامعي، 2012.

بن رجب (عبد الحميد)، **الطفولة في الإسلام**. تونس، مركز النّشر الجامعي، 2007.

بن رجب (عبد الحميد)، **الحديث عن الزّمان من السنّة والقرآن**. تونس، مركز النشر الجامعي، 2010.

بن رجب (عبد الحميد)، **خُطب منبرية من القرآن والسنّة النّبوية**. تونس، نقوش عربية، (بصدد النشر، 2019)

مؤلفـــات أخـــــرى

Bouhdiba A. *La sexualité en Islam*. Paris, PUF,1975.

Freud S. (1913)*Totem et tabou*. Paris, Payot, 1980.

Lebovici S. *Le nourrisson, la mère et le psychanalyste*.Paris, Le Centurion, 1984.

Reich W. (1930) *La révolution sexuelle*. Paris, Plon, 10-18, 1974.

Reich W. (1933)*L'analyse caractérielle*. Paris, Payot, 1976.

Reik T. (1948) *Ecouter avec la troisième oreille*. Paris, Tchou, 2002.

Reik T. (1949) *Fragment d'une grande confession. Une autobiographie psychanalytique*. Paris, Denoël, 1973.

Tillion G. *Le harem et les cousins*. Paris, Le Seuil, 1982.

*** *** ***

بطلب من المجلّة العلمية الفرنسية *L'autre* (الآخر) التي تُشرف عليها الأستاذة الدكتورة ماري روز مورو(Marie-Rose Moro)، أستاذة الطب النفسي للأطفال بجامعة باريس ديكارت ومديرة"بيت المراهقين" بمستشفى كوشان(Hôpital Cochin) بباريس.

لذكر هذا المقال حسب مصدره الأصلي: خليفي (أميرة)، "صاحب الأُذن الذهبية. حوار مع أ. د. رياض بن رجب بن رجب ". مجلة *الآخر/ عياديّات، ثقافات ومجتمعات*. عن دار النشر "الفكر المتوحّش"، قرونوبل (فرنسا)، سنة 2017، مجلّد 18، عدد 1، ص 87-101. (بتصرّف وتحيين)**

مراجـــع النـــص

** Pour citer cet article dans sa version originale:

E. Khelifi - L'homme aux oreilles d'or. Entretien avec Riadh Ben Rejeb. *L'autre ; cliniques, cultures et sociétés*, 2017, volume 18, n°1, pp. 87-101, Éd. La pensée sauvage, France. ISBN 978 2 85919 319 5

https://revuelautre.com/entretiens/lhomme-aux-oreilles-dor/ - **revuelautre.com** ISSN 2259-4566.

[1] ترخيص للترجمة إلى العربية والنّشر من قبل دار النّشر الفرنسية (La pensée sauvage) في شخص مديرها Allan Geoffroy والمديرة العلمية للمجلّة: Marie-Rose Moro خصّيصا للمجلّة العربية "نفسانيات" الصادرة عن مؤسسة العلوم النفسية العربية.

[2] إشارة إلى عنوان كتاب المحلّل النفسي تيودور رايك (1949) "جزء من اعتراف كبير. سيرة ذاتية تحليلية".

En *référence* à Reik T. (1949) *Fragment d'une grande confession. Une autobiographie psychanalytique*. Paris, Denoël, 1973.

[3] انظر قائمة المراجع بآخر الحوار.

[4] « *Union Tunisienne d'Aide aux Insuffisants Mentaux* » (ville de Kélibia, Tunisie).

[5] « *Association Tunisienne pour le Développement de la Psychanalyse* ».

[6] « *International Psychoanalytic Association* ».

[7] قدم السّويديون إلى مدينة قليبية ومكثوا بها من 1964 إلى 1972 في إطار دعم البنية التحتية لدولة الإستقلال وتركوا عديد الإنجازات في مدينة قليبية منها بناء أول مستشفى بقليبية والمستوصف والمدرسة البحرية وتوسعة الميناء وغير ذلك ممّا كان له أثر في صورة المدينة والحياة الاجتماعية والإقتصادية لسكّانها.

[8] ريـــاض بن رجب (عبد الحميد)، **الطفولة في الإسلام**. تونس، مركز النّشر الجامعي، 2007.

ريـــاض بن رجب (عبد الحميد)، **الحديث عن الزّمان من السنّة والقرآن**. تونس، مركز النشر الجامعي، 2010.

[9] Ben Rejeb R. *Maraboutisme et psychothérapie dans la Cap Bon de la Tunisie* (1985).

[10] Reik T. *Fragment d'une grande confession.*

[11] Wilhelm Reich, *L'analyse caractérielle.*

[12] بُعث مركز الطب النفسي للأطفال والمراهقين بتونس في سبتمبر 1987 بالمستشفى الجامعي الحبيب ثامر (المستشفى العسكري الحالي) من قبل الأستاذ الدكتور المرحوم محمّد البشير حليّم.

[13] "نصّ "الجسد والذاكرة الجنينية" المذكور أعلاه.

[14] Lebovici S. *Le nourrisson, la mère et le psychanalyste.*

[15] Ben Rejeb R. *La référence*. Tunis, CPU,

[16] وهو بثّ مباشر من التلفزة الفرنسية.

[17] استقلّت كل منها سنة 1984 على يد العميد الأستاذ الدكتور عبد المجيد الشرفي.

[18] La Fondation Vallée

[19] Les dysharmonies évolutives

Classification française des troubles mentaux de l'enfant et de l'adolescent (CFTMEA)

[20] يُعتبر هذا الكتاب موسوعة شاملة لمختلف الجوانب الثقافية والإجتماعية والعقائدية للمجتمع العربي الإسلامي.

[21] Société Française de Psychiatrie de l'Enfant et de l'Adolescent (SFPEA).

[22] *Neuropsychiatrie de l'Enfance et de l'Adolescence.*

[23] René Diatkine, Janine Simon, Paul Denis, Colette Chiland, Jacques Angelergues …

[24] Ben Rejeb R.La psychanalyse en Tunisie. Historique et état des lieux. Revue *Topique*,Paris, 2010, 110, pp.41-81.

[25] انظر العمل التأليفي الذي قمت به في كتاب: « *La référence* »

[26] *Psychopathologie transculturelle de l'enfant et de l'adolescent*

[27] Reik T. (1948) *Ecouter avec la troisième oreille*. Paris, Tchou, 2002.

[28] تمّ فيما بعد إنجاز ندوة حول موضوع "الإفراط" (2017) وأخرى حول موضوع "العُبور" (2018)